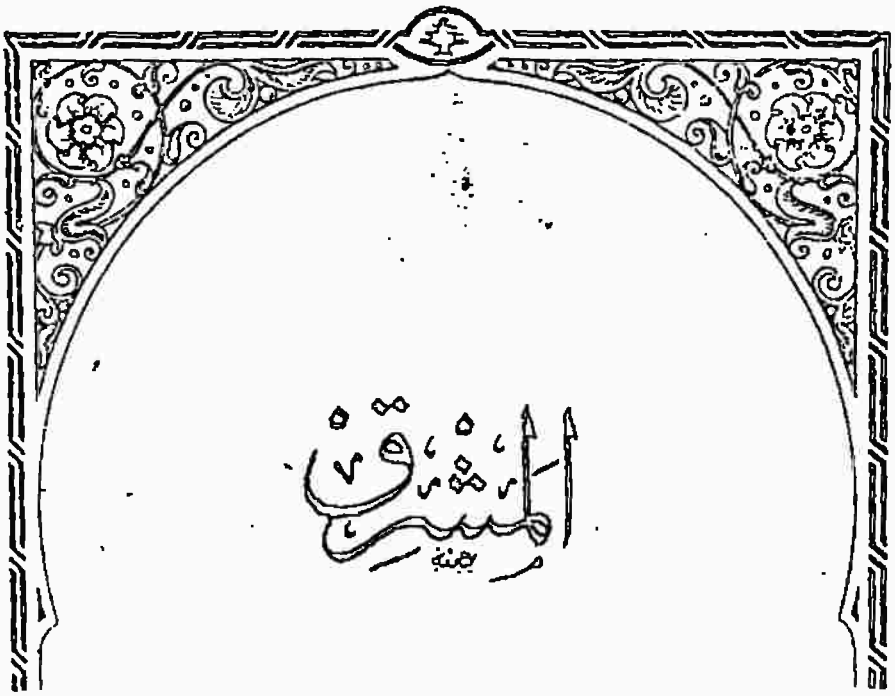

السنة الثالثة والاربعون
تموز - ايلول ١٩٤٨

من الخزانة الشرقية

بقلم حبيب زيات

الصور والايقونات في الحمامات قديماً

ورث العرب المتحضرون الحمامات عن الروم مع كل ما ازدانت به من اقسام ومرافق وحكمة وتدبير وتزويق وتصوير. واشتهرت دمشق خصوصاً بكثرة ما كان منها فيها بفضل مياهها وغزارتها. ولما نقم اهل دمشق على الوليد تعاظم ما ينفقه من الاموال على الجامع قال: «يا اهل دمشق اني رأيتكم تفخرون بانهاركم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فاحببت ان يكون مسجدكم الخامس»[1] وقد وقفنا على فصل للوازي وصف فيه اوضاع الحمامات وانواع ما كان فيها من التصاوير فقال:

«تفكر في الحكماء المتقدمين الذين استنبطوا الحمام في بلد من البلدان كيف علموا بدور فكرهم وصائب عقلهم ان الحمام اذا دخله الانسان يتحلل من قواه شيء كثير

١) مسالك الابصار للعمري ١ : ١٨٨

فاقتضت حكمتهم ان استخرجوا بعقولهم ما يميز ذلك بزيادة فرسموا في الحمام صوراً بديعة الصنعة باصباغ حسنة مفرحة وقسموا ذلك الى ثلاثة اقسام ولم يجعلوه قسماً واحداً لاعتقادهم ان ارواح البدن ثلاثة اصناف حيوانية ونفسانية وطبيعية فجعلوا كل قسم من التصوير سبباً لتقوية قوة من القوى المذكورة والزيادة فيها فصوروا للقوة الحيوانية القتال والحرب وطرد الخيل واقتناص الوحوش وصوروا للقوة النفسانية العشق والتفكر في العاشق والمعشوق وتصوير معاينة بينهما او معانقة وما اشبه ذلك وصوروا للقوة الطبيعية البساتين وصور الاشجار البهية المنظر مع كثرة الازهار والالوان المشرقة فهذه التصاوير وامثالها هي جزء من اجزاء الحمام الفاضل »(١

ومن الادلة على شيوع التصوير الآدمي في حمامات الامويين ما شوهد منه في قصير عمرة وهو كان بالاحرى حماماً ملكياً وفيه صورة الخليفة (وهو في الارجح الوليد بن يزيد بين سني ٧١٢–٧١٥) جالساً على عرشه مستعلياً على اعدائه المثلين بازائه وهم قيصر ملك الروم ورزريق (ملك القوط) وكسرى (يزدجرد الثالث) والنجاشي وتحت كل منهم اسمه باليونانية والعربية وتحت صورة الخليفة كتابة عربية تشير اليه قد اتحت وطمست تصعب قراءتها. وهنالك على الجدران وفي بعض الطاقات صور نساء ورجال وحيوانات متنوعة وفي عصابة دائرة باعلى الحائط صورة امرأة تكاد تكون عارية يزين شعر رأسها دُرر ولآلئ نقلت اكثر قطعها مع قسم من الكتابة المذكورة الى دار التحف في برلين . وكذلك كانت حمامات العباسيين في سامرا حافلة بصور النساء والراقصات لا يكاد يرى جدار خال منها كما صرح بذلك الدكتور هرتسفلد احد الذين تولوا الحفر في انقاض سامرا واستنطاق احجارها وآثارها(٢) . وظل المصورون والنقاشون كل ايام العباسيين والفاطميين يمثلون النساء على جدران الحمامات حتى تجاوز بعضهم حدود الحياء والعفة ومثلوا العشاق والفساق في سكرات الحب. فلما كان شعبان من سنة ٤٠٤هـ/١٠١٤م منع الحاكم بامر الله الاساكفة من عمل الخفاف للنساء ومحيت صورهن من الحمامات »(٣) .

١) نقلنا قول الرازي من ورقات وقعت الينا بدمشق ونظن انه ورد في كتاب لابن قاضي بعلبك .

٢) H. Lammens, *L'attitude de l'Islam primitif en face des arts figurés*, p. 26 .

٣) وفيات الاعيان لابن خلكان ٢ : ١٦٦ .

ولا ندري هل عنّ يوماً لاحد رجال الحسبة الاشراف على ما كان يجري في هـذه البيوت التي تُحلّ فيها المآزر وتكشف العورات من المنكرات والفضائح[1] وقد استباح فيها بعض رجال الدولة تمثيل الغلمان الروقة والجواري الحسان على هيئة محرّمة ولا نجد لساناً افصح في شرح حال بعض الحمامات الخاصة ببغداد من وصف الحمام العجيب الذي شاهده وطاف فيـه بدر الدين الحسن بن زفر الاربلي المتطبب قال :

« رأيت ببغداد في دار الملك شرف الدين هرون ابن الوزير الصاحب شمس الدين محمد الجويني حماماً متقن الصنعة حسن البناء كثير الاضواء قد احتفّت به الازهار والاشجار فادخلني اليه سائسه وذلك بشفاعة الصاحب جاه الدين ابن الفخر عبد المنعم الاربلي وكان سائس هذا الحمام حبشياً كبير السنّ والقدر فطاف بي عليه وابصرت مياهه وشبابيكه وانابيبه المتخذة بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية وبعضها على هيئة طائر اذا خرج منها الماء صوّت باصوات طبيعية ومنها احواض رخام بديعة الصنعة والمياه تخرج من سائر الانابيب الى الاحواض ومن الاحواض الى بركة حسنة الاتقان ثم منها الى البستان ثم اراني نحو عشر خلوات كل خلوة منها صنعتها احسن من صنعة اختها ثم انتهى بي الى خلوة عليها باب مقفل بقفل حديد ففتحه ودخل بي الى دهليز طويل كله مرخّم بالرخام الابيض الساذج وفي صدر الدهليز خلوة مربّعة تسع بالتقريب اربعة انفس اذا كانوا قعوداً وتسع اثنين اذا كانوا نياماً ورأيت من العجائب في هذه الخلوة ان حيطانها الاربعة مصقولة صقالاً لا فرق بينه وبين صقال المرآة يرى الانسان سائر بشرته في اي حائط شاء منها ورأيت لبعضها مصورة فصوص حمر وصفر وخضر ومذهبة كلها متخذة من بلور مصبوغ بعضه اصفر وبعضه احمر فاما الاخضر فيقال انه حجارة تأتي من الروم واما الذهب فزجاج ملبّس بالذهب وتلك الصور في غاية الحسن والجمال على هيئات مختلفة في اللون وغيره وهي ما بين «محب ومحبوب» اذا نظر المرء اليها تحركت شهوته ويقال لي الخادم انسائس هذا صنع على هذه الصفة لمخدومي حتى اذا نظر الى ما يفعل هولاء . . . تتحرك شهوته سريعاً . . . قال الحاكي : وهذه الخلوة دون سائر الخلوات التي دخلت اليها مخصوصة بهذا الفعل اذا اراد الملك شرف الدين الاحتماع في الحمام بمن يهواه من احواري الحسان والصور الجميلة والنساء الناقنات الحسن لم يجتمع به الا في هذه الخلوة من اجل انه يرى كل محاسن الصور الجميلة مصوّرة في الحائط ومجسّمة بين يديه ويرى كل منهما صاحبه على هذه الصنعة ورأيت في صدر الخلوة حوض رخام مصلّع وعليه

---

١) لابن عبد الهادي كتاب آداب الحمام (رقم ٥٦٨٩ من الخزانة الظاهرية) قال فيه بعد ان نقل كلاماً للامام تقي الدين : « ما يغلط فيه نساء زماننا من دخول الحمام من غير ستر عوراتهن حرام يجب على ازواجهن منعهن من ذلك . . . فاحذر يدخلن عراة تنظر كل واحدة منهن الى عورة الاخرى » (ورقة ٢٦).

الثوب مركب في صدره والثوب آخر برسم الماء البارد والثوب الاول برسم الماء الفاتر ومن تحته الحوض ويساره عمدان صغار منحوتة من البلور يوضع عليها مباخر الند والعود وابصرت فيها خلوة شديدة الضياء مفرحة بديعة قد أُنفق عليها اموال كثيرة. وسألت القادم من تلك الحيطان المشرقة المضيئة من اي شيء صنعت فقال لي ما اعلم.

قال الحاكي: فما رأيت في عمري ولا سمعت بمثل تلك الخلوة ولا باحسن من ذلك الحمام مع اني ما أحسن ان اصفهما كما رأيتهما فانه لم تتكرر رؤيتي لهما ولا اتفق لي النظر بصناعتهما ومباشرتهما وفي الذي ذكرت كفاية.[1]

ومن هذا الوصف اليسير يمكن الاستدلال على مقدار الخسارة الفادحة التي مُني بها تاريخ الفنون والصناعات الشرقية بخراب كل القصور والجوامع والدور والحمامات والمصانع والمباني العجيبة التي ازدانت بها البقاع والرباع في المدن العباسية والفاطمية دون ان يُتاح لها من يحسن تصويرها او على الاقل يجيد وصفها وتفصيلها لتبقى بالرسم والذكر شاهدة بغنى الحضارة العربية وحذق الصنّاع البلديين.

وكان بين الصور الجميلة والنساء الفائقات الحسن التي كانت تزين بها الحمامات ما كان يستوقف انظار الشعراء ويستهوي قلوب العشاق حتى قال صاحب الموشى: «بلغنا ان منهم من عشق صورة في حمام»[2]. ولذلك انكر الشرع غاية الانكار دخول الحمامات التي ترى الصور في ابوابها وجدرانها وروي انكارها عن الامام احمد بن حنبل قال الغزالي: «ومن المنكرات الصور التي تكون على باب الحمام او داخل الحمام يجب ازالتها على كل من يدخلها ان قدر فان كان الموضع مرتفقاً لا تصل اليه يده فلا يجوز له الدخول الا لضرورة فليدخل الى حمام آخر فان مشاهدة المنكر غير جائزة ويكفيه ان يشوّه وجهها او يبطل به صورتها ولا يُمنع من صور الاشجار وسائر النقوش سوى صور الحيوان[3]. وورد مثل ذلك لابن الحاج[4].

---

١) نفح الطيب للمقري، المطبعة الازهرية، ٢: ٢١٨-٢٠٦.

٢) الموشى ٥٦

٣) احياء علوم الدين ٢: ٢٢٥.

٤) المدخل ٢: ٥٠ و ١: ١٦٩.

واشتهر بدمشق حمام سيف الدين وكان جامعاً بين اقسام التصوير الثلاثة التي اشار اليها الرازي. وصفها عمر بن مسعود بن عمر الحلبي الكتاني المعروف بالمحار بقوله :

وخطّ فيها كل شخص اذا لاحظته تحسبه ينطقُ
ومثّل الاشجار في لوحها ولينها لو انها تورقُ
اطيارها من فوق اغصانها تردها تنطق او ترمقُ
وهيئة الملك وسلطانه وجيشه من حوله يحدقُ
هذا بسيف له عسة وذا بقوس وبه يطلقُ[1]

وكانت بعض الحمامات تجمع بين الصور الملونة والدُمى المنحوتة كحمام زبّان بمصر. وزبان هو ابن عبد العزيز بن مروان بنى له ابوه هذا الحمام « وكان فيه صنم من رخام على خلقة المرأة عجب من العجب حتى كسرت في السنة التي امر يزيد بن عبد الملك فيها بكسر الاصنام وفيه يقول كريب بن خالد الجيشاني :

من كان في نفسه للبيض منزلة فليأت ابيض في حمام زبان
عبل لطيف هضيم الكشح معتدل على ترائبه في الصدر نديان »[2]

واكثر ما كانت تكون هذه الدمى في حمامات الاندلس كالتي نقلت من طالقة الى اشبيلية وطالقة هذه (Italica) قال ياقوت « ناحية من اعمال اشبيلية بالاندلس »[3] . وكانت دمية بديعة الشكل جعلت في حمام الشطارة باشبيلية وصفها بعض اهل الاندلس بقوله :

ودمية من ترمو بجيد تباهي في التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلة ولا ألمت باوجاع المخاض
وتعلم انها حجر ولكن تغيّبنا بالحاظ مراض[4]

---

١) ديوان المحار في مكتبة الاسكندرية .
٢) تاريخ مصر وولاتها لابي عمر الكندي ٢١-٢٢ وفتوح مصر لابن عبد الحكم ١١٣-١١٤ .
٣) معجم البلدان ٣ : ٤٩٤
٤) نفح الطيب ٢ : ٢١٨ - ٢١٩ .

ووصف ابن زيدون دمية رآها في جنة حين ازاره المعتضد بن عباد جنة له فقال من ابيات :

وسلمى دمية يروق اختلا ... ها الكل منها ويفتن التبيض
ثغر ناصع وخد اسيل ... ومحيا طلق وطرف غضيض
وقوام كما استقام قضيب البا ... ن اذ عله ثراه الاريض
وانسام لو انها استنشقت نف ... حة راك اتساقه الإغريض
والتفات حكاتها هو بالإ ... بجاء من فرط لطفه تعريض[1]

ويؤخذ من بعض الاخبار الاندلسية ان التصوير على ابواب الحمامات كان احياناً للتحقير والتشهير كإخراج بعض الرجال والنساء في خيال الظل في الشرق للسخرية والاستهزاء. قال الوزير ابن شهيد في فصل له: «ما كان هذا القرد اهلاً لأن يحمل عليه حرّ كلام ولا ليُرمى بفضل بيان وبالحوا ان يُرسَم على عتبة دكان او يُصوَّر على باب حمام»[2] وفي حكاية ابي القاسم البغدادي: «ذا الآخر من هو ؟ كأنه صورة على باب حمام»[3].

ومن اغرب صور الحمامات في الشرق وجود بعض الايقونات في حمامات النصارى ولعلهم ارادوا باتخاذها معارضة عادة تمثيل الغلمان والجواري وحسان النساء في الحمامات الاسلامية او انهم قصدوا بتصويرها مجرد التبرك والتقديس ولم نجد ذكراً لهذه العادة الا في كتاب عيون الانباء في شرح المكيدة التي كادها بختيشوع بن جبرئيل لحنين بن اسحق حتى حمل الخليفة المتوكل على الله العباسي على ابعاده وسجنه، وكان قد جاءه قبلاً وقال له: «قد أُهدي الى امير المؤمنين قونة قد عظم عجبه بها واحسبها من صور الشام وان نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه تولّع بنا في كل وقت وقال هذا ربكم وامه مصورين وقد قال لي امير المؤمنين: انظر الى هذه الصورة ما احسنها وايش تقول فيها ؟ فقلت: صورة مثلها يكون في الحمامات وفي البيع وفي المواضع

---

١) ديوانه ٨٦ – ٨٧ .
٢) الذخيرة لابن بسام ١-١ : ١٨٢ .
٣) حكاية ابي القاسم لابي المطهر الازدي ٧ .

المصورة . والصواب ان دعها لك وسألك عن مثل ما سألني ان تفعل كما فعلت انا .. (قال حنين بن اسحق) فما كان الا ساعة حتى جاءني رسول امير المؤمنين فاخذني اليه فلما دخلت عليه اذا القوسة موضوعة بين يديه فقال لي : يا حنين ترى ما احسن هذه الصورة واعجبها فقلت: والله انه لكما ذكر امير المؤمنين فقال : فايش تقول فيها ؟ فقلت . مثلها مصور في الحمامات وفي الكنائس وفي سائر المواضع المصورة»[1].

وهذا الشاهد هو كل ما وُفقنا للعثور عليه في كل مطالعاتنا ولا ندري لذلك هل كانت هذه العادة الغريبة مختصة بالعراق ام كانت معروفة في مصر والشام ايضاً .

١) عيون الانباء لابن اصيبعة ١ : ١٩٣ .